

## درعيات المعري

### طور ممهد للزوميّاته

في شعر المعري - كما في شعر كل شاعر آخر - غوامض تحتاج الى جلاء .  
من تلك الغوامض مقطّعات وقصائد تعرف بالدرعيات اثبتها المعري أو اثبتها  
جامعو ديوان المعري في آخر الديوان مجموعة في مكان واحد . هذه الدرعيات ،  
التي اکتبت اسمها من ان الشاعر يصف فيها انواع الدروع ووجوه فائدتها ،  
تبلغ احدى وثلاثين في العدد ، اطولها الدرعية السادسة <sup>(١)</sup> :

صنّت درعي إذ رمى الموت صرعيّ (م) بما يترك الغنيّ فقيراً  
فانها اثنان وسنون بيتاً . أما أقصرهن فهي الدرعية الخامسة والعشرون :  
عبّ سنان الرمح في مثل النبر

وهي خمسة أشطر من الرجز .

وبعد هذه الدرعيات في ترتيب الديوان تأتي ثماني مقطّعات لا يصف فيها  
المعري الدرع ، ولكنه يتناول عدداً من الأغراض التي تناولها في الدرعيات .  
ثم ان الدرعيات والمقطّعات الثمانية التي تليها - مثل سائر قصائد سقط الزند -  
ليست مرتبة على أحرف الروي (على القوافي) ، وان كنا حتى الآن لا نستطيع  
الجزم بمدى ترتيبها التاريخي .

\*

لقد خطر لي - كما خطر لغيري بلا ريب - سؤال صحيح : ما الدرعيات  
في ديوان المعري وما سبب نظمها ؟ ولقد طارحت نقرأ أجليهم حول موضوع

(١) ديوان سقط الزند ، ضمة امين هندية ، مصر ١٩٠١ م = ١٣١٩ هـ الصفحة ٤١

الدرعيات فرأيت ان الدرعيات قد أثارَت تساؤلهم ولكنها لم تستهواهم استهواهم  
يحملهم على محاولة الجواب .

وبما انني في هذه الأيام أعد الطبعة الثانية من كتابي «حكيم المعرفة» فقد  
أحببت ان أُرْجِع البصرَ في هذا الموضوع فعدت الى قراءة الدرعيات ونصب  
عينيَّ ذلك السؤال القديم . ولقد تبين لي ببعض القرائن ان هذه الدرعيات هي  
في الحقيقة دور وسط بين ديوان «سقط الزند» الذي صار المعري في اكثره  
على خطى المتنبى فتعرض للناس فيه بالمدح وبالثناء وبين «اللزوميات» حيث  
ينصرف حكيم المعرفة عن البشر مرة واحدة ليهتم بالافصاح عن رأيه هو في  
الحياة والناس .

ثم تبين لي عرضاً ان المقطعات الثماني التي تلي الدرعيات في ترتيب الديوان  
الحالي تمثل دوراً قصيراً أراد المعري فيه ان يحل نفسه من التقيد بموضوع واحد ،  
هو موضوع «الدرع» ليطلق لعقله العنان في تناول جميع وجوه الانتقاد .

\*

أما الأدلة التي حملتني على هذا الاعتقاد فهي موجزة في ما يلي :

أ - بلوح لي ان المعري نظم الدرعيات في مدى واحد من الزمن وانه  
نظمها بعد رجوعه من بغداد في الأغب . نلاحظ ذلك من أشياء عدة أقلها  
انه اخذ يستمد شيئاً من استعاراته وتشابيهه من العراق والرحلة الى العراق :

وما رقدت عذسي ، ولكن سماها - طروقاً ، فأعداها - سنى متناعس  
ككعب الشنوف العسجديات او كما أشارت بأخفى سورهن العرائس  
جرأك ناب أن ضربت به السرى ورحلك ليلاً فوق ناب تواعس  
فرتك أواذي الفرات صباية وابلست لما اعرضت لك بالس<sup>(١)</sup>

وكذلك نلاحظ ان المعري يذكر في الدرعياب شبيه وتهدم جسمه ، فقد  
قال في الدرعية الأولى (ص ١٣٥) :

(١) سقط الزند ١٦٢ - ١٦٣ ، راجع ١٥٨ : دجلة ودجيل .

واخلقتُ الشباب وكان بُردِي ؛ وفارقتُ الحُسام وكان حنفي .  
أعاذل ، طالما اتلفت مالي ، ولكن الحوادث أتلفتني  
ثم قال في موضعين آخرين (١٣٦ و ١٥٣) :

وإني لا بُغَيْرُ لي قتيراً خِضاب كالمدام بلا مزاج  
منعت الشيب من كَتَمِ التراقي ولم أمنعه من خطر العجاج<sup>(١)</sup>  
غدا قوودي كالقودين ثقلاً وأضحى الشيب بينهما علاوة<sup>(٢)</sup>

أما الدليل الحاسم على ان الدرعيات ترجع الى ما بعد رجوع الشاعر من بغداد  
فذكره فيها انه «سجن نفسه ليبتعد عن الناس» ، وهذا «السجن» هو الميزة  
الكبرى لاتجاه المعري في لزومياته نفسها . قال (سقط الزند ، ١٤٧ ، البيت الأخير) :

لذلك سجن النفس حتى أرحتها من الأوس ، ما إخلاء ربّع بإخلاق!  
وهكذا يبدو بوضوح ان المعري اراد ان يتخذ من الخوم حول وصف الدرع  
وسيلة الى طرق موضوعات تتعلق بتفضيل الجاهد على القاعد ، وبالتالي بتفضيل  
الذي ينظر الى الدنيا بعين الجد على الذي يراها طواً بالنساء خاصة . ثم تطرق  
من هذا الى التأمل في أوجه كثيرة من أوجه الحياة .

ب - وبقراءة الدرعيات بانعام نظر يتبين ان المعري اراد ان يجربها من حيث  
القوافي مجرى لزوم ما لا يلزم ، ولكن لم يتأت له ذلك على الوجه الأكل  
لقرب عهده بممارسة هذا النوع من النظم . على ان له درعية هي لزومية تامة  
( الدرعية الحادية عشرة ، الصفحة ١٥٢ ) :

ما أنا بالوغب ولا بأبن الوغب يا ثغب وادبنا سلمت من ثغب  
حملته فوق بريء من ثغب طرّف معدّ للطعان والشغب  
فلم يسال باللوام واللغب تسمع للثعلب فيه كالضغب

(١) منعت رأسي الخضاب بالكتم ( بالحناء ) لاختفي شبيهه ، ولكن لم أمنعه من أن يملوه  
غبار الحرب فيزيد في لون مشيه . (٢) القود : الشعر على جانب الوجه قرب الأذن .  
والقود أيضاً : العبدل ، الكيس الكبير .

اردى ظماء السمر همت بالنغب ورد سغبان السيوف بالسغب  
لا تله عن جلالاته ولا تغب<sup>(١)</sup>

ومثل ذلك الدرعية الخامسة والعشرون (ص ١٦٣) فانها من الرجز أيضاً  
وقوافيها الخمس في أسطرها الخمسة: النبر - القهر - مهر - الشهر - الدهر .  
وهناك مقطعات لم يتم فيها للمعري التزام ما لا يلزم كالدرعية الخامسة عشرة  
مثلاً فانها تسعة عشر بيتاً التزم الشاعر اللام والواو والكاف في سبعة أبيات  
منها: هُوك - أوك - الصعلوك - ملوك - هوك (وهذه الخمسة كلها متوالية  
في مطلع الدرعية) - المألوك - دلوك (ص ١٥٥ - ١٥٦) .

على ان من أغرب ما بلغت النظر في هذا الباب الدرعية الثلاثون ، فان المعري  
بناها على الروي "أى" ولكنه التزم في كل قافية حرفاً سابقاً على «أ»  
غير مكرر في المقطوعة كلها . ولو اننا رتبنا قوافي هذه الدرعية حسب نسق  
الأحرف الهجائية (سهولة الاحاطة بها) لوجدناها كما يلي (ص ١٦٩ - ١٧٠):  
تأى - دأى - ذأى - شأى - صأى - فأى - لأى - مأى -  
وأى - نأى - نأى<sup>(٢)</sup> .

ج - وتتفق الدرعيات مع الزوميات من حيث الغرض ان الزهد بارز فيها  
وان ذمه للدنيا فيها كثير (سقط ١٤٧ - ١٤٨) :

وحرمت شرب الراح لاخوف سائط<sup>(٣)</sup> ولكنها ترمي العقول بعة ال  
ومن سره ثوب يعز بلبسه فلا تجر منه ام دقير<sup>(٤)</sup> على بال  
هوك<sup>(٥)</sup> تهني أُمستهم بحبها وتلقى الرجال المبغضين بإقبال

(١) الوغب: الأحق اللثيم الثغب: الماء في بطن الوادي ، الذبح والطعن . الثغب :  
الريبة. الطرف: الحصان. الضغب: صوت الذئب والأرنب . السمر: الرماح. الثغب: الشرب القليل.  
(٢) كذا في الأصل ، وصوابها: تأى بالناء. المثناة من فوقها بمعنى: سبق .  
(٣) السائط الذي يضرب بالسوط ، يقصد خوفاً من الحد (المقاب على شرب الخمر بالضرب).  
(٤) الدنيا . (٥) المرأة المتهاكمة على الرجال .

لذلك سجنّت النفس حتى أرحتها من الأيس، ما إخلا ربع بإخلاق  
 اذا ما حلت الجذب فرداً بلا أذى فسقياً له من روضة غير محلال  
 د - الحملة على المرأة . وفي الدرعيات حملة ظاهرة على المرأة ، بل ان  
 المقصود من الدرعيات كلها التنفير من النساء . قال المعري في الدرعية التاسعة  
 والعشرين على لسان أمّ عجزوز تنصح ابناً لها بلبس الدرع للجهاد والمعالي وبالغزوف  
 عن الزواج ولو عرضت عليه خير النساء ، فانها لن تكون الا شر الخلق  
 (ص ١٦٧ - ١٦٩) :

عليك السابغات فإيننه	بدافعن الصوارم والاسنة
ومن شهد الوغى وعليه درع	تلقأها بنفس مطحنه
ولم يترك أبوك سوى قناة	وسيف آزر فرساً وُجته <sup>(١)</sup>
فحنّ الى المكارم والمعالي	ولا تثقل مطاك بعء حنه <sup>(٢)</sup>
فإني قد كبرت وما كعاب	ملائمة عجزوا مقسنه <sup>(٣)</sup>
فلا تطع الدوالف مرسلات	فكم أوقعن في أرض مجنه <sup>(٤)</sup>
يقطن : فلانة ابنة خير قوم	شفاء للعيون إذا شفته <sup>(٥)</sup>
أولئك ما أتين بنصح خيل	ولا دين المليك ولا بدنه
ولو طاوعتمن لجئن يوماً	باخت الغول والنصف الضفنه <sup>(٦)</sup>

هـ - وفي الدرعيات تبدأ شكوك المعري بالظهور ويبدأ عنده انكار المغيبات  
 على ما نعرف في اللزوميات تماماً، قال (ص ١٥٩) :

والدهر إعدلم ويسر وإد رام ونقض ونهار وليل  
 يُفني ولا يفني وُيبي ولا يبلي وبأتي برخاء ووبل

وهذا بلا رب نظير قوله في اللزوميات :

(١) آزر : أبيض . (٢) مطاك : ظهرك . حنة : زوجة . (٣) مقسنة :  
 كبيرة . (٤) حنة : لملها : فيها جن . (٥) شفن : نظر نظرة اعجاب .  
 (٦) النصف : المرأة التي ذهب نصف عمرها (أي أطيه) . الضفنة : الحمقاء ، الكبيرة الجسم .

نزول كما زال آباؤنا وبقى الزمان على ما ترى :  
 نهاراً يضيء ، وليل يجيئ ، ونجم يغور ونجم يري .  
 و من القطع التي لبست من الدرعيات ولكنها ملحقة بها على ما رأينا في  
 مطلع هذا المقال من حيث الزمن وتشابه الأغراض قطعة يحن المعري فيها الى  
 النوم الطويل ( الموت ) ، ويرى انه الراحة من عناء الحياة . وهذا شيء نعرفه  
 في اللزوميات ، قال ( ص ١٧٣ ) :

ما بعد ذبن سوى الحمام ، وإني لا إخال أن الحجر فيه طويل  
 وفضيلة النوم الخروج بأهله من عالم هو بالأذى مجبول  
 لاحظ هنا أيضاً قوله : من عالم هو « بالأذى مجبول » مما يطالعك كثيراً  
 في اللزوميات .

\*

وهنالك خصائص أخرى تجعل الدرعيات طوراً سابقاً على اللزوميات . ويبدو  
 ان المعري بعد ان رجع من بغداد واعتزل الناس اراد ان يطالع على الناس  
 بأرائه وشرط على نفسه ان يلتزم القافية والفن ، فاتخذ موضوع « الدرع » .  
 ولو ان المعري جرى الى آخر الشوط هذا المجري لكانت « درعياته » جملة  
 لضيق مجال الشعر فيها . ولقد أحسن المعري حينما حل نفسه من التزام « الفن »  
 فترك الدرعيات وطلع علينا باللزوميات التي قيد فيها نفسه بالقافية وحدها .

\*

انني أعتقد انني كشفت عن ناحية كانت غامضة في سقط الزند راجياً أن  
 أكون قد أصبت النظر وأحسن التعبير . ولعل في الدارسين من يسددني في  
 ما أخطأت ويستدرك علي ما غفلت عنه .

الدكتور عمر فروخ